وأعقب بما ينتظرهم من أهوال القيامة وما أعد للذين انخلعوا عن الإشراك بالإيمان أمر الله رسوله أن ينتقل من مقام التحذير والتهديد إلى مقام الاحتجاج على انتفاء أن يكون لله ولد جمعا بين الرد على بعض المشركين الذين عبدوا الملائكة والذين زعموا أن بعض أصنامهم بنات الله مثل اللات والعزى فأمره بقوله (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) أي قل لهم جدلا وإفحاما ولقنه كلاما يدل على أنه ما كان يعزب عنه أن الله ليس له ولد ولا يخطر بباله أن لله ابنا .

والذين يقول لهم هذا القول هم المشركون الزاعمون ذلك فهذا غرض الآية على الإجمال لأنها افتتحت بقوله (قل إن كان للرحمن ولد) مع علم السامعين أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يروج عنده ذلك .

ونظم الآية دقيق ومعضل وتحته معان جمة : وأولها وأولاها : أنه لو يعلم أن لله أبناء لكان أول من يعبدهم أي أحق منكم بأن أعبدهم أي لأنه ليس أقل فهما من أن يعلم شيئا ابنا لله ولا يعترف لذلك بالإلهية لأن ابن الله يكون منسلا من ذات إلهية فلا يكون إلا إلها وأنا أعلم أن الإله يستحق العبادة فالدليل مركب من ملازمة شرطية والشرط فرضي والملازمة بين الجواب والشرط مبنية على أن المتكلم عاقل داع إلى الحق والنجاة فلا يرضى لنفسه ما يورطه وأيضا لا يرضى لهم إلا ما رضيه لنفسه وهذا منتهى النصح لهم وبه يتم الاستدلال ويفيد أنه ثابت القدم في توحيد الإله .

ونفي التعدد بنفي أخص أحوال التعدد وهو التعدد بالأبوة والبنوة كتعدد العائلة وهو أصل التعدد فينتفي أيضا تعدد الآلهة الأجانب بدلالة الفحوى . ونظيره قول سعيد بن جبير للحجاج . وقد قال له الحجاج حين أراد أن يقتله : لابدلنك بالدنيا نارا تلظى فقال سعيد : لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلها غيرك " فنبهه إلى خطئه بأن إدخال النار من خصائص الله تعالى " .

والحاصل أن هذا الاستدلال مركب من قضية شرطية أول جزأيها وهو المقدم باطل وثانيهما وهو التالي باطل أيضا لأن بطلان التالي لازم لبطلان المقدم كقولك : إن كانت الخمسة زوجا فهي منقسمة بمتساويين والاستدلال هنا ببطلان التالي على بطلان المقدم لأن كون النبي صلى الله عليه وسلم عابدا لمزعوم بنوته لله أمر منتف بالمشاهدة فإنه لم يزل ناهيا إياهم عن ذلك . وهذا على وزان الاستدلال في قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) إلا أن تلك جعل شرطها بأداة صريحة في الامتناع وهذه جعل شرطها بأداة غير صريحة في الامتناع .

والنكتة في العدول عن الأداة الصريحة في الامتناع هنا إيهامهم في بادئ الأمر أن فرض الولد محل نظر وليتأتى أن يكون نظم الكلام موجها حتى إذا تأملوه وجدوه ينفي أن يكون ولد بطريق المذهب الكلامي . ويدل لهذا ما رواه في الكشاف أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال : إن الملائكة بنات ا فنزل قوله تعالى (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) . فقال النضر : ألا ترون أنه قد صدقني فقال له الوليد بن المغيرة ما صدقك ولكن قال : ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة . وروي مجمل هذا المعنى عن السدي فكان في نظم الآية على هذا النظم إيجاز بديع وإطماع للخصوم بما إن تأملوه استبان وجه الحق فإن أعرضوا بعد ذلك عد إعراضهم نكوصا .

وتحتمل الآية وجوها أخر من المعاني . منها : أن يكون المعنى إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين أي فأنا أول المؤمنين بتكذيبهم قاله مجاهد أي بقرينة تذييله بجملة (سبحان رب السماوات والأرض) الآية .

ومنها أن يكون حرف (إن) للنفي دون الشرط والمعنى : ما كان للرحمن ولد فتفرع عليه : أنا أول العابدين أي أتنزه عن إثبات الشريك له وهذا عن ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وابنه .

ومنها : تأويل (العابدين) أنه اسم فاعل من عبد يعبد من باب فرح أي أنف وغضب قاله الكسائي وطعن فيه نفطويه بأنه إنما يقال في اسم فاعل عبد يعبد عبد وقلما يقولون : عابد والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة .

وقرأ الجمهور (ولد) بفتح الواو وفتح اللام . وقرأه حمزة والكسائي (ولد) بضم الواو وسكون اللام جمع ولد .

A E